الحركات الايمائية في الحروف الغابية

الحلقة الرابعة :

كنا عرضنا في الحلقة الأولى أن الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) قد ورثناها عن المرحلة الغابية كبقية شعوب العالم البدائية والحضرية على حد سواء .

ولكن ما هي أصول الحركات الايمائية التي ترافق أصواتها ، وماهي دلالاتها في لغتنا ؟

أولاً : الألف

أ / الألف المهموزة :

تقرأ الألف في أول الكلمة (همزة) . يحصل صوتها بانطباق فتحة المزمار وانفراجه الفجائي قبل أن يصل النفس إلى الحنجرة ، فكانت بذلك مزمارية المخرج ، لا حلقية ولا جوفية .

إذا لفظت الهمزة بشيء من التفخيم يترافق صوتها مع حركة انفراج الفكين واسعاً وحركة الرأس إلى الأعلى . فيحاكي صوتها الانفجاري بذلك نتوءاً في الطبيعة ، ويأخذ صورة الظهور والبروز والحضور ، كمن يقف فوق مكان مرتفع .

ولقد أفاد الانسان العربي من خصائصها هذه ، فاستخدمها منفردة لنداء القريب (أفاطم مهلاً) ، وممدودة لنداء البعيد (آزيداً) . كما استخدمها للاستفهام والطلب والتقرير والتهكم والأمر والتعجب ، وما إليها من الوظائف و المعاني التي عددها ابن هشام ، بما يتوافق مع ما ذكرناه من خصائصها .

كما جعلها في مقدمة أسماء الألوان الأصلية ، للوضوح (أحمر . أبيض) ، وفي مقدمة الضمائر الظاهرة للمتكلم والمخاطب (أنا . أنت) للحضور والظهور ، فحرم الغائب منها (هو هي) . كما جعلها في مقدمة الأفعال اللازمة للتعدية (أكرمه) ، وفي صيغة أفعل التفضيل (أشجع) للبروز والظهور .

وكان للهمزة نصيبها الوافي من حروف المعاني ، قد تصدرت بعضاً من حروف (النداء والشرط ، والتفسير ، والعرض ، والمصدرية والتشبيه والتوكيد ، والصلة) . وذلك للافادة من خصائصها الايمائية والايحائية في الوضوح والظهور والحضور بمعرض التعبير عن وظائف هذه الحرف ومعانيها .

أما إذا وقعت (الهمزة) في وسط الكلمة أو نهايتها ، فإن صوتها الانفجاري يحاكي عثرة في الطبيعة . (فأس . داء . كأداء) .

ب / الألف اللينة :

تقرأ الألف في وسط الكلمة ونهايتها (ألِفاً ليّنة) . يخرج صوتها من جوف الفم مع حركة انفتاح الفكين وارتفاع الرأس إلى أعلى ، فيوحي صوتها بالامتداد إلى الأعلى .

ولقد أفاد العربي من هذه الخصائص فجعلها في نهاية (أنا) ، لمنح شخصية المتكلم مزيداً من السمو والرفعة في مواجهة المخاطب (أنت) ، الذي أنهاه بحرف (التاء) الرقيق الصوت الضعيف الشخصية ، استعلاء للمتكلم على المخاطب . وحرك هذه (التاء) بالكسرة للمخاطبة إمعاناً في الاستعلاء عليها . وجعل (الألف) في صيغ (فاعلٍ وفعّال ومفعال) للفعالية والمبالغة .

وقد جعلها في نهاية (إلى) لمنح الحدث المتعلق بها فسحة في المكان والزمان . فيقال : (ذهبت إلى البيت) ، ولا يقال : (ذهبت للبيت) ذلك لأن(اللام) للالتصاق كما سيأتي ، فلا فسحة معها لحدث الذهاب في المكان ، ولا في الزمان . ولهذا السبب يقال : وقفت منه ((وجهها لوجهه)) ، ولا يقال : ((وجها إلى وجه)) .

ولما كانت حركة الرأس إلى الأعلى في نهاية التواصل ، ايماء أو كلاما تشير إلى الرفض أو النفي ، فقد أسند العربي للألف في نهاية حروف المعاني (لا . ما . كلا) ، وظائف الرفض والنفي ، ضربا من الثبات والاستقرار .

ثانيا : الواو

يحصل صوتها بتدافع النفس في جوف الفم مع انضمام الشفتين على شكل حلقة ضيقة تسمح بمروره إلى خارج الفم . يترافق صوتها المفخم مع حركة اندفاع الفكين والرأس إلى الامام مما يشير إلى الفعالية والاستمرار .

لقد عدد ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب) نيفا وثلاثين قسماً ومعنى (للواو) . كان العطف من أهم أقسامها ومعانيها الأصلية . فهي لديه ولدى الغلايني (لمطلق الجمع على تقارب أو تراخ في الزمن) . واختلف الفقهاء في مسألة ترتيب متعاطفيها .

ونحن نرى أنه لا مجال للترتيب معاً وذلك بحكم تدافع النفس في جوف الفم عند خروج صوتها مما يضاهي تدافع متعاطفيها بلا ترتيب في الزمان والمكان ففي قدم زيد وسعد وخالد قد يكون خالد هو أول القادمين . وكان الغلايني على هذا الرأي الصواب .

ولهذا السبب من تدافع النفس في إخراج صوتها ، جعلت ضميراً للذكور لدى ابن هشام حرفا دالا على الجماعة لدى سيبويه .

كما جعلها العربي في صيغة (فعول) للفعالية والمبالغة (أكول) ، وعلامة رفع جمع المذكر السالم إذا كان فاعلاً أو مبتدأ للفعالية .

ثالثا : الياء

صوتها في جوف الفم المترافق مع حركة الفك السفلي والرأس إلى تحت باتجاه الصدر ، يحاكي حفرة عميقة في الطبيعة ، على العكس من صوت (الهمزة) .

فأفاد العربي من خاصية الحفرة في صوتها وجعلها في نهاية الحرف (في) للاحتواء ، وفي صيغ التصغير ، وكأن الأسماء المصغرة قد وقعت في حفرة (رجيل . عو يميد) . كما جعلها علامة نصب وجر جمع المذكر السالم والمثنى ، ليتحملا في هذا المكان الخفيض الذي استقرا فيه وقع الاعتداء عليهما مباشرة أو بواسطة الحروف .

ولما كانت حركة الفك السفلي التي ترافق صوت (الياء) تشير إلى الذات ، فقد ألحقها العربي مشددة بالأسماء للنسبة (سوري . شرقي) . كما جعلها في صيغة (فعيل) ، إما لرسوخ الحالة المعنيّة في ذات صاحبها (عليم . حكيم) ، وإما بمعنى المفعول (قتيل) ، بما يتوافق مع خصائص (الياء) الايمائية والايحائية في كلا المعنيين .

ولكن لماذا ضعف تأثير هذه الحروف في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ؟

على الرغم من أهمية الحروف الغابية في القطاع الصرفي ، على وجه ما ألمحنا إليه آنفا فإنه لا رصيد يذكر لخصائصها الايمائية والايحائية في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها كما أسلفنا . فلم ذلك ؟

هناك سببان اثنان :

الأول : فقرها في الايحاءات الحية والشعورية : لقد اقتصرت خصائص (الألف والواو والياء) على نقل الأبعاد الثلاثة في الطبيعة إيماء : إلى فوق وأمام وتحت . ولا موحيات حسية أو شعورية أخرى في أصواتها .

ونظراً لفقرها في الموحيات ، فإن الانسان العربي لم يجد مجالاً للتعبير بها عن معانيه الحضارية ، عبر مراحل تطوره . فقل بذلك تأثيرها المباشر في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، ولو كان لها دورها الثانوي في موسيقى الكلمة وتلوين معانيها .

والثاني : يتعلق بطبيعة أصواتها : كان الانسان العربي في مراحله اللغوية الأولى يكثر من استعمال الحروف الجوفية الثلاثة في تواصله مع أبناء جنسه بكثير من المد والتفخيم ، على مثال مانلاحظ ذلك لدى أبناء اللهجات الافريقية البدائية ، كما في لهجة الموسي في (فولتا العليا) .

ولكن ما إن بدأت اللغة العربية تأخذ طابعها الشاعري على أيدي مزاجها وشعرائها حتى عمل الانسان العربي على إماتة هذه الحروف الغابية لعلة الطابع الغوغائي في أصواتها . وقد أتبع في ذلك كما لاحظ العلايلي في مقدمته اللغوية ثلاث طرائق ، كان أهمها تحويلها إلى حركات شكل : الألف اللينة إلى فتحة ، والواو إلى ضمة ، والياء إلى كسرة ، فانعدم اللغو في لغته الشاعرية . وهكذا تكون الحروف الجوفية هي الأقدم في الزمن من حركات الشكل بآلاف كثيرة من الأعوام على العكس مما ادعاه بعض علماء اللغة العربية وفقهاؤها .

حول أصول حركات الشكل ودلالاتها

الحلقة الخامسة :

أولا : حول إماتة الحروف الجوفية في اللغة العربية :

لقد انتهينا من الحلقة السابقة إلى أن الانسان العربي قد عمل على إماتة الحروف الجوفية (الألف اللينة والواو والياء) في ألفاظه لسببين :

ا – فقر أصواتها بالموحيات الحسية والشعورية ، فانصرف عنها ما استطاع لعجزها عن التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الانسانية في معانيه المستجدة عبر مراحله الثقافية المتطورة .

ب – عدم استعذابه غوغائية أصواتها في لغته الشاعرية الراقية . وكان ذلك بترجيح شديد بفعل الشعراء أنفسهم .

ولقد اتبع العربي في ذلك كما لاحظ العلايلي ثلاث طرائق .

ا – بالاستعاضة عن الحروف الجوفية بحروف صامتة ، وفي مقدمتها الهمزة . بعضها قد أميت كما في (وخي) قد تحولت إلى أخي . وبعضها لا يزال حيا ، كما في (بئر من بير ، أحد من وحد ، أطم من وطم ، نشر من وشر ...) وذلك كثير.

ب – بالتضعيف كما في (نب) من نبي ، وبالحذف ، كما في (أب – أم – دم) من أبو أبوة ، أمو أمومة ، دمو دمو ياً ...).

ج – بتحويل الحروف الصائتة إلى حركات – كما أسلفنا في الحلقة السابقة – وذلك بدليل بقاء هذه الحروف في بعض الكلمات كتابة دون لفظ ، كما في (عمرو – أولئك) .

ولكن على الرغم من المحاولات المتنوعة لاماتة الحروف الغابية في اللغة العربية ، فإنها لاتزال تحتفظ بأهمية فائقة لايحظى بمثلها أي حرف عربي آخر ، وذلك في قطاعين لغويين اثنين .

الأول قديم سابق للمرحلة الرعوية الشاعرية قبل أن يعمل العربي على إماتتها ، هي قطاع حروف المعاني .

والثاني حديث من نتاج المرحلة الرعوية الشاعرية ذاتها ، هو قطاع حركات الشكل . ولكن لما كانت الحروف الزراعية الايمائية تشارك الحروف الغابية في تراكيب معظم حروف المعاني ، فإننا سنكتفي هنا بتوضيح علاقة معاني حركات الشكل

بخصائص الحروف الجوفية الثلاثة . أما الحديث عن حروف المعاني ، فسنؤجله إلى ما بعد الانتهاء من تحديد معاني بعض الحروف الزراعية الايمائية والرعوية الايحائية التي تشارك في تراكيب حروف المعاني موضوع هذه الحلقات .

فعملية تحويل هذه الأصوات الغوغائية إلى حركات ، لا ألطف على اللسان لفظا ، ولا أرق في السمع جرساً ، ولا أخطر على المعاني استعمالاً ، إنما هي أشبه ما تكون بعملية تحويل المادة البترولية الخام إلى مشتقات ، لاأنقى طبيعة ، ولا أشف منظرا ، ولا أخطر استعمالاً . وكل منهما كان قبل التحويل ، خاماً ، وغوغائياً .

ثانيا : حول دلالات حركات الشكل :

1 / الفتحة :

هي مخفف (الألف اللينة) . قد جعلها العربي في نهاية الفعل الماضي ، للاستقرار : (من مات فات) . كما جعلها في نهاية المفعول به للاستكانة والاستقرار . وذلك لأن صوت (الفتحة) في نهاية الكلمة يلفظ بأخفض نبرة ، مما يجردها من كل فعالية ، على العكس مما وقعت في أول الكلمة أو وسطها . وقد لحظنا آنفا أن الألف اللينة في نهاية حروف (لا . ما . كلا) تشير إلى مواقف الرفض والنفي ، ضرباً من الثبات والاستقرار .

وقد استثمر الانسان العربي خصائص الاستكانة والاستقرار والثبات في حركة الفتحة ، فجعلها في نهايات الأسماء المنصوبة بما يناسب أغراضها . قد جعلها علامة نصب المفعول (به ، وفيه ، ومعه ، والمطلق) ، والمنادى ، والمستثنى بإلا ، والتمييز لأنها تتحمل جميعاً فعل الفاعل إما مباشرة ، وإمَّا بصورة غير مباشرة ، بواسطة حرف أو فعل محذوف مقدر .

أما الحال ، فقد نصب بالفتحة ، إما لوقوع الفعل عليه ضمناً بصورة غير مباشرة : (سرت والنهر) ، أو للثبات والاستقرار : (هذا الهلال طالعاً يقشع الظلام)

وفي كل الأحوال فإن هذه الأسماء المنصوبة لاتدل معانيها على فعاليات كيما ترفع بالضمة ولا على الاحتواء ، أو الامتلاك ، أو على حالات ذاتية فتجر بالكسرة ، كما سيأتي وشيكاً .

2 / الضمة :

هي مخفف صوت (الواو) قد جعلت علامة الفاعل والمبتدأ للفعالية ، وعلامة الفعل المضارع للاستمرار ، إرثاً عن خصائص (الواو) ووظائفها . ولا متسع هنا للاستمرار في هذا المسار لتعليل رفع اسم كان وأخواتها أو نصب خبرها ، ولا العكس مع (أنَّ) وأخواتها ، وما يعمل عملها . وما أحسب أن تعليل ذلك سيكون أعسر ولا أغرب مما أتى به فقهاء اللغة العربية حول الكثير من إشكالاتها .

3 / الكسرة :

هي مخفف صوت (الياء) . قد جعلت علامة المجرور بأحد حروف الجر ليتحمل اعتداء الفاعل بواسطته : (سار على الطريق) . كما جعلت علامة جر المضاف إليه : للامتلاك (كتاب المعلم) أو للنسبة (دمع العين) ، أو للاحتواء : (سمك البحر) ، وذلك إرثاً عن خصائص الياء ووظائفها في الاحتواء والامتلاك والنسبة . ولم يخرج الغلايني عن ذلك في تحديد وظائف الاضافة .

ثالثا : حركات الشكل و (عين) الفعل الثلاثي :

إن أبرع استعمال لحركات (الضمة والكسرة والفتحة) يتجلى في تحريك (عين) الفعل الثلاثي . فقد

بلغ العربي في هذا المضمار شأواً بعيداً من زهافة الأحاسيس والمشاعر ، في ترف لغوي لا نظير له .

1 – قد وكل إلى (الضمة) في عين الفعل الثلاثي مخفف صوت (الواو) ووريثها مهمة التعبير عن الفعاليات المنبثقة من الذات ، كما في (أدُب ، شرُف) نبُه . رزُل ، خبُث) فكانت أفعالها لازمة إطلاقاً لاكتفائها الذاتي وعدم حاجتها إلى أي مفعول .

2 – ووكل إلى (الكسرة) مخفف صوت (الياء) ووريثتها ، مهمة التعبير عن حالات وصفات ذاتية ، مما ينبغي معها أن تكون أفعالها لازمة لاكتفائها الذاتي ، كما في (آسِف . حزِن . حقِد . وحِل . درِد . سوِد .)

ولكن لوحظ أن قلة من الأفعال قد شذت عن هذه القاعدة وذلك لسببين اثنين :

ا – إما لأن معاني بعضها يدل على حركة باتجاه الذات ، كما في (لعِق ، لقِف . لغِف ، لهِم . عشِق)

وقريب من ذلك فعل (شكِل) لاتجاه هذه الفاجعة نحو ذات الوالدين حصراً .

ب – وإما لتصحيف في نقل حركة الشكل أثناء التدوين في بداية العصر الأموي ، كما في فعل (عدِم المال) ، مما لايدل على حالة ذاتية . فكانت الفتحة أولى به ، كما سيأتي :

3 – ووكل إلى الفتحة مخفف صوت (الألف اللينة) ووريثتها ، مهمة التعبير عن الفعاليات المتجهة من الذات نحو الآخرين في الأفعال المتعدية . فحركة (الفتحة) في هذا الموقع إذا لفظت مفخمة ، كما كان العربي يفعل ذلك قبل المرحلة الشاعرية ، تمنح الأفعال مرتقى يساعدها على الاعتداء فيما إذا كانت مضامينها قابلة له ، كما في (أمَر . ضرَب . كسَر . دهَس ...) . أما إذا لم تكن قابلة للاعتداء فتظل لازمة كما في (أرَز . بقَع . بقَل . جنَح . حضَج . دجَن) .

وتأكيداً لهذا النهج ، فإن الفعل الثلاثي الواحد الذي حركت (عينه) بأكثر من حركة يلتزم معناه بما يتلاءم مع خصائص حركته ، كما في (أصل) .

فإذا حركت (عينه) بالفتحة كان متعدياً (أصَل الشَيء) استأصله . وإذا حركت بالكسرة دل معناه على حالة ذاتية وكان لازماً (أصِل اللحم) فسَد . وإذا حركت بالضمة كان لازماً ويدل على فعالية منبعثة من الذات : (أصُل النسب) . شرُف . وكذلك الأمر في (لحم) بالفتح والكسر والضم : لحَم الشيء لأمه – ولحِم بالمكان نشب – ولحُم الرجل ، كثُر لحمه .

وكما في معاني الأفعال التالية بتحريك (عينها) بالفتح أولاً وبالكسر ثانياً : (أكَل الطعام ، مضغه ، وبلعه – أكِل الرجل ، أكل بعضه بعضاً – أشَر الخشب ، نشرها – أشِر ، مرح وبطر – لسَن فلاناً ، عابه – لسِن – فضُح – لعَسه – عضه – لعِست الشفة ، اسود باطنها – عَرق العظم ، أكل لحمه – عرق ، رشح جلده – لفت الشيء ، لواه – لفِت الرجل ، حمق – عفص يده ، لواها – عفِص الطعام كان فيه مرارة وتقبض) .

وهكذا نستطيع اليوم أن نصحح الكلمات التي أصابها التصحيف أثناء التشكيل في تحريك (عين) الفعل الثلاثي بالرجوع إلى هذا النهج ، كما في (عقم) .

فقد ورد في المعجم الوسيط (عقمت المرأة والرجل (بالفتح) ، كان بهما ما يحول دون النسل . ويقال ، عقم الله المرأة والرجل ، جعله عقيماً) . كما ورد فيه أيضاً : (عقمت المرأة والرجل (بالضم) ، عُقماً فهو عقيم وهي عقيم ...) .